أهل السنة والجماعة

معالم الانطلاقة الكبرى

جمع واعداد

محمد عبد الهادي المصري

٢٣ ش أبو داود الظاهري
مدينة نصر ــ القاهرة
ت ــ فاكس : ٢٦٣٧٨٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى جميع المسلمين الصادقين ... أفراداً ... وجماعات الذين يراودهم التساؤل الكبير .. كيف نبدأ ؟ وماهي الأصول التي نتجمع عليها ؟ .. وماهي نقطة الإنطلاق في الاتجاه الصحيح ؟ ...

إلى جميع المسلمين المخلصين ... أفرادًا .. وجماعات الذين يتطلعون الى ميلاد فجر صادق وبدء مرحلة جديدة وإنطلاقة حقيقية تجاه الهدف الإسلامي المنشود

إلى جميع المسلمين الواعين ... أفرادًا .. وجماعات الذين يدركون أن إحياء الأمة الإسلامية من سباتها العميق والدفع بها الى مكانها الطبيعي لتقود نفسها أولاً وتقود البشرية جمعاء مرة أخرى بأمر الله لن يتحقق من خلال جهود أفراد مهما كثروا ، أو تجمعات صغيرة أو كبيرة مهما تعددت طالما أن كلاً منها تغلق بابها وتحيط نفسها بسياج من الأوهام يمنعها من التعاون والتشاور وتبادل النصيحة مع الآخرين ، وتغتر نفسها بدعوى مظنونة أنها هي وحدها على الحق وهي وحدها الفرقة الناجية والطائفة المنصورة وماعداها باطل وأن نصر الله لها وحدها آت ...

الى جميع المسلمين من أهل السنة والجماعة .. أفراداً .. وجماعات المتجردين من الأهواء .. أهدي لهم معالم الإنطلاقة الكبرى داعياً الله عز وجل أن يتقبل هذا الجهد المتواضع وأن يهدينا إلى الحق ويجمعنا عليه ... آمين .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد وأن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ . أما بعد

فإن النبي ﷺ رُوي عنه من وجوه متعددة رواها أهل السنن والمسانيد ، كالإمام أحمد وأبي داود والترمذي وغيرهم أنه قال : « ستفترق هذه الأمة على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة » . وفي رواية : « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

ولقد تلقت الأمة هذا الحديث بالتصديق والقبول ، وعلم السلف والأئمة أن النبي ﷺ ينبه أمته ويفتح عقولها على سنة عامة من سنن الله في خلقه ، حدثت مع الأمم السابقة فهلكت بها ، إلا من كتب الله له النجاة . وأن هذه السنة العامة متحققة لا محالة في هذه الأمة أيضا ، إلا من رحم الله ، فهداه إلى التمسك بهدي رسوله ﷺ وهدي صحابته رضوان الله عليهم .

يقول ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » . وفي لفظ : « على ثلاث وسبعين ملة » . وفي رواية قالوا : يا رسول الله ، من الفرقة الناجية ؟ قال « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » . وفي رواية قال : « هي الجماعة ، يد الله على الجماعة »[1].

ولقد صدق رسول الله ﷺ ، وتحققت سنة الله في خلقه ، اذ افترقت الأمة بعد رسولها من بعد ماجاءهم العلم بغيًا بينهم ـــ فتجاذبت الناس الأهواء والاختلافات ، وتعددت المذاهب والرايات ، وتشعبت البدع والنظريات ، وفارق الناس كتاب ربهم وسنة نبيهم ، فضلوا عن سبيل الصراط المستقيم ، وضربوا في تيه السبل ، وقدموا بين يدي الله ورسوله ، واتبعوا سبيل كل ناعق .

ولكن خلال ذلك كله ـــ وتحقيقا لسنة الله التي أخبرنا عنها رسوله الأمين ﷺ ـــ ظلت راية الفرقة الناجية عالية خفاقة تجمع تحتها كل من أراد لنفسه النجاة ، وأراد له ربه أن ينأى بنفسه بعيدا عن كل تلك الرايات الضالة المضلة ، فيتمسك بالجماعة التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه الأبرار رضوان الله عليهم ، وتابعيهم بإحسان، ومن سار على دربهم وتمسك بهديهم ممن جاء بعدهم .

ولقد ضربت هذه الجماعة الطاهرة والفرقة الناجية بجذورها في أعماق الزمان والمكان، فأثمرت شجرتها المباركة كل خير عرفته هذه الأمة على مدار تاريخها الطويل ، وعلى امتداد أرضها شرقا وغربا . فلقد تربى في ظل هذه الراية كل الأئمة الأعلام وسلف الأمة الأخيار الذين حافظوا على تراث هذه الجماعة وأضافوا إليه عصارة فكرهم وقلوبهم بل وحياتهم ، وجاهدوا في سبيل نقله لمن بعدهم نقيا صافيا واضحا جليا ، كما تلقوه هم عمن قبلهم وتميزت هذه الجماعة بمنهجها وعلومها وفقهها الخاص بها ، كما تميزت بسلوكها وأخلاقها ، بل وتميزت برجالها الأعلام الذين حملوا منهج هذه الجماعة وعلمها وسلوكها ، وساروا به بين الناس ، يلتزمون به ، ويصبرون عليه ، ويدعون إليه ،

---

(١) يقول ابن تيمية : (الحديث صحيح مشهور في السنن والمسانيد ، كسنن أبي داود والترمذي والنسائي وغيرهم. راجع مجموع فتاوى شيخ الاسلام ج ٣ ص ٣٤٥ .

ويجاهدون دفاعًا عنه ويرفعون رايته ، ويحفظونه في كتبهم للأجيال التي تجيء بعدهم وتلتزم بمنهجهم وتسير على دربهم .

ولما تميز كل زمان ومكان بظروف خاصة به ، وملابسات وفتن وابتلاءات تخالف ماعداه من أماكن وأزمنة أخرى ، فقد كان الناس في كل زمان ومكان يلجأون أمام هذه المحن إلى تراث ورجال هذه الجماعة يطلبون منهم الجواب ويبحثون عندهم عن النجاة والخلاص ، فقد كانت الراية واضحة والسبيل إليها سهلا ممهدا . ولكن الفتن اشتدت والمحن تلاحقت والابتلاءات تداعت والرايات تداخلت والسبل تشابكت ، وأصبح الناس في حيرة من أمرهم ، فقد اختلط الحق بالباطل والتبست السنة بالبدعة، وزعمت كل طائفة لنفسها النجاة والتمسك بالصراط المستقيم . ومع قلة العلماء الأعلام وشراسة الحرب التي يشنها أعداء هذا الدين من الكفرة والزنادقة ، صار تمييز سبيل النجاة وتمييز أهله أمرا صعبا على كثير من المسلمين الصادقين الباحثين عن النجاة في خضم هذه التيارات المتلاطمة والرايات المتداخلة والطوائف المتنازعة .

وبالرغم من الجهود العلمية الجبارة التي قام بها علماء هذه الجماعة في تمييز سبيلهم وايضاح منهجهم ، إلا أن كل عصر له لغته الخاصة به ، وكل جيل له أسلوبه المميز الذي يتلمس به طريقه إلى الحق ، والذي يصبغ إلى حد كبير أسلوب كل طائفة تعيش هذا العصر في عرض منهجها والتعريف به والدعوة إليه . ولقد بحث كثير من الشباب المسلم المخلص من أبناء هذا العصر الذي نعيشه عن رسالة أو بحث علمي واضح ومكتوب بلغة واسلوب هذا العصر ينير له طريقه أثناء بحثه عن سبيل هذه الجماعة أو الفرقة الناجية ، فلم يجد . إذ بالرغم من جهود الأئمة الأعلام في هذا المجال إلا أن عصارة هذه الجهود مازالت متناثرة في بطون كتب التراث تنتظر بحثا جادا أو رسالة علمية تجمع هذه الجهود القيمة في دراسة متكاملة تقدم إلى أبناء هذا العصر بلغتهم وأسلوبهم بحيث يتخذون منها معيارا واضحا ممثلا لحقيقة منهاج هذه الفرقة الناجية ، يقيسون عليه حياتهم وحياة الناس من حولهم .

وههنا أمر هام جدير بالايضاح والقاء الضوء عليه ببعض التفصيل ؛ وهو أن كلامنا هنا ليس منصبا ــ وكما قد يبدو للبعض وللوهلة الأولى ــ على جانب واحد أو قطاع محدد أو محدود من (أصول) أهل السنة والجماعة ــ كجانب العقائد مثلا ــ وانما نقصد بكلامنا هنا ما هو أشمل وأوسع من ذلك بكثير .

إن جانب العقائد ـــ على أولويته وأهميته ـــ لا يمثل أولا وآخرا إلا بندا واحدا أو جانبا منفردا من البنود أو الجوانب المتعددة التي تضمها (أصول) هذه الطائفة الناجية .

إن تعبير (أصول) أهل السنة والجماعة قد تقلص ـــ وللأسف الشديد ـــ أمام عوامل كثيرة تاريخية وسياسية واجتماعية مختلفة ، لكي يصبح معبرا في النهاية ـــ عند الكثيرين ولأول وهلة ـــ عن جانب وحيد من الجوانب المتعددة والغنية لهذه الأصول. وهو جانب العقائد فقط بينما طغت أتربة الأهمال والنسيان ـــ بل والتناسي في أحيان كثيرة على غير ذلك من (أصول) لا تقل أهميتها في ميزان الحق وفي معيار النجاة والنجاح في الدنيا والآخرة عن أهمية (أصول) هذه الطائفة في جانب العقائد وحده ! إننا لاننكر أن جانب العقائد ـــ وكما يقرر الامام ابن رجب ـــ خطره عظيم والمخالف فيه على شفا هلكة ـــ ولكن هل هذا يبرر أن نغمط بقية (الأصول) حقها ونتناسى هذه الجوانب الأخرى المضيئة التي تمثل ـــ مع جانب العقائد ـــ المرتكزات الأصلية والأعمدة الراسخة الثابتة التى يقوم عليها دائما هذا البناء الشامخ الذي يجسد تراث هذه الطائفة على مدار تاريخها كله؟ إن (أصول) أي شيء ـــ وكما تخبرنا مراجع اللغة ـــ هي الأسس التي يقوم عليها هذا الشيء . فهل الأسس التي قام عليها تراث هذه الطائفة ـــ أهل السنة والجماعة ـــ هي الأصول العقائدية فقط؟ وهل الحضارة التي حققت خيري الدنيا والآخرة على مدى تاريخ هذا الدين كله قامت فقط على الأصول العقائدية؟ أين الأصول العلمية وضوابط المعرفة وحدود العقل ومجالاته عندهم؟ أين أصولهم في النظر والاستدلال ومناهج البحث والاستقراء؟ أين أصول فقه الواقع والحركة الإيجابية الواعية خلال هذا الواقع وحدود المصالح والمفاسد المعتبرة عندهم؟ أين أصولهم في النظر إلى المخالف والتي ينطلق منها منهج تعاملهم مع هذا المخالف؟ وأين الأصول التي تحكم علاقتهم هم بعضهم مع بعض؟ ثم أين الأصول التي تحكم علاقتهم مع عالم الأسباب من حولهم والعلل الكونية التي جعلها الله سننا مطردة صارمة مؤدية الى معلولاتها؟ أين؟ وأين؟ وأين؟

إننا عندما نتكلم عن غياب دراسة متكاملة عن (أصول) أهل السنة والجماعة إنما نعني بذلك مؤلفا منفردا يستخرج ويجمع بين دفتيه كل هذه الأصول في دراسة علمية شاملة وفي شكل أو نسق منهجي متكامل تكون الأصول العقائدية ممثلة فيه كأحد بنوده الأساسية وجوانبه الرئيسية بالطبع ولكنها ليست كل شيء فيه وإن كانت أبرز ملامحه، وهذه الدراسة هي التي نسأل الله أن ييسر لهذه الأمة من ينجزها .

إن الاقتصار على جانب العقائد فقط باعتبارها هي كل شيء في (أصول) أهل السنة والجماعة قد أوقع الكثير من الشباب المخلص ـــ ومن حيث لايدري ـــ في تناقضات حادة تتصادم مع (أصول) أخرى كثيرة لأهل السنة والجماعة تضبط سلوكهم وتحكم حركتهم أثناء تعاملهم مع واقع الأمور وحقائق الأشياء . إننا عندما نتكلم عن (أصول) أهل السنة والجماعة فانما نعني بذلك المناهج الشاملة والمتكاملة لهذه الطائفة والأصول المتعددة التي تنطلق منها ـــ علما وعملا ، فكرا وسلوكا، عقيدة وشريعة ـــ لكي تحقق من خلالها دين الله في أرضه ـــ وليس فقط في نفوس أبنائها ـــ وبالأسباب التي خلقها أو أمر بها الله سبحانه وتعالى طريقا الى ذلك . وهذا المعنى هو الذي نطلبه ونبحث عنه في بطون كتب التراث : مقياس ثابت وشامل يجمع (أصول) هذه الطائفة في جوانبها المختلفة ، ويضبط به المسلم منطلقاته الأساسية في جميع شئون حياته الدنيا خلال رحلة سعيه إلى ربه عز وجل .

لقد كان نتيجة غياب هذا المقياس الثابت والشامل عن ذهن كثير من الشباب المسلم والذي يتمكن به من الإجابة عن بعض التساؤلات المحددة التي طرحها عليهم هذا العصر، مثل من هم أهل السنة والجماعة؟ ومتى يكون المسلم فردا منهم ومتى يخرج عنهم؟ وهل كونه فردا منهم يضمن له النجاة بإطلاق؟ ومن هم المفارقون للجماعة؟ وهل هم هالكون جميعهم بأعيانهم؟ وما موقف أهل السنة والجماعة منهم؟ وكيف يعاملونهم؟ كان نتيجة غياب هذا المقياس الثابت والشامل عن ذهن هؤلاء الشباب ـــ وليس غيابه في نفسه ـــ أن وقع كثير من هؤلاء الشباب في طرفي نقيض : فبعضهم تميعت في ذهنه الحدود والفواصل بين أهل السنة وبين غيرهم ، فاعتقد ـــ حالا إن لم يكن مقالا ـــ أن الجميع ناجون، وأن الفرق المختلفة ماهي إلا اجتهادات متنوعة تؤدي إلى نتيجة واحدة، بل وشكك كثير منهم في حديث الفرق المذكور والبعض الآخر وضع حول نفسه حدودا وهمية ثم زعم أنها الحدود التي تميز أهل السنة عن غيرهم ، واعتقد أنه وحده وطائفته أو جماعته هم أهل السنة والطائفة المنصورة والفرقة الناجية ، وأن من عداهم هم أهل البدع والتفرق والاختلاف . وبين هؤلاء وأولئك وقف القطاع الأكبر من الشباب المسلم حائرا يبحث لنفسه عن إجابات واضحة محددة ومقاييس ثابتة مقررة يُقوّم بها الواقع المحيط به ويضبط بها أحكامه عليه ، ويميز بها بين الطوائف والتجمعات الموجودة ، ويعرف حقيقة العلاقة بينها وبين الفرقة الناجية أيا كانت الأسماء واللافتات التي تعرف بها نفسها أو يطلقها عليها الآخرون . وإننا نقرر ابتداء أن هذا الميزان ليس

إجتهادا منا ولامن غيرنا بل ولامن الصحابة الأبرار ، إنما هو لفظا ومعنى قد تلقوه وتلقيناه من بعدهم عن الله ورسوله ﷺ فصاغه ــ أي الميزان ــ الصحابة عملا وسلوكا وصاغه مَنْ بعدهم ممن سار على دربهم علما وقواعد مكتوبة ولكنها كما أسلفنا متناثرة في بطون كتبهم ــ أي كتب أهل السنة والجماعة ــ فما كان منا إلا أن جمعنا هذا المنثور على قدر علمنا وجهدنا ويبقى الباب مفتوحا أمام أبحاث أشمل وأوسع .

ولقد بحثنا في المكتبة الإسلامية عن بحث متكامل يغطي هذا الموضوع ولكننا للأسف الشديد لم نعثر عليه . بل حتى الرسائل الجامعية على كثرتها وتنوعها لم يبحث أي منها هذا الموضوع بحثا شاملا من جوانبه المختلفة النظرية والعملية بما يشفي صدور الشباب المسلم المتعطش لهذا الأمر . إذ أننا لم نجد إلا أبحاثا جزئية تتناول إما تحقيق أحد كتب العقائد عند أهل السنة ، أو حياة أحد أئمة السنة أو الحديث . ولقد اتجهنا نتيجة لذلك لنبحث في كتب التراث نفسها فلم نجد ــ في حدود علمنا وبحثنا ــ ما يحقق مانصبو إليه من تغطية شاملة للموضوع إلا من خلال كتابات شيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنه . ولما كان مجموع فتاوي شيخ الإسلام من أشمل كتبه وأكثرها تنوعا من حيث ما تناوله فيه من موضوعات ، وهو في الوقت نفسه من أكثر كتبه تداولا بين الشباب المسلم ؛ مع سهولة لغته ووضوح عرضه ، أضف الى ذلك غزارة المعلومات والعمق العلمي الذي يتميز به فكر شيخ الإسلام ، كل ذلك جعلنا نركز بحثنا في هذه الموسوعة الضخمة نحاول أن نستخرج منها الخطوط العامة والملامح الرئيسية التي تشكل إجابات محددة لكل التساؤلات المطروحة أو لمعظمها ، لعلنا بذلك نفتح الطريق أمام بحث أكثر تكاملا سواء من ناحية التفصيل العلمي الدقيق ، أو من ناحية منهج البحث للموضوع ذاته .

ولعل شخصا يسأل : ولماذا كتابات شيخ الإسلام بالذات ؟ ولقد أجبنا عن جانب من هذا السؤال ؛ وهو أننا لم نجد ــ في حدود علمنا وبحثنا ــ من تناول هذا الموضوع بالعمق والشمول والتفصيل الذي تناوله به شيخ الإسلام . والجانب الآخر هو أن الإمام ابن تيمية رحمه الله واحد من الأئمة الأعلام الذين لا خلاف بين المسلمين المنتسبين للسنة على اختلاف مذاهبهم وتياراتهم ، على أنه يمثل أحد المرتكزات الشامخة علما وعملا على مدار تاريخ أهل السنة كله . فقد اطلع رحمه الله على علم وفضل الأئمة السابقين، فحفظه وتمثله بوعي وفهم دقيقين ، واجتهد في تفسيره وشرحه وتفصيله ، حتى بلغ

في ذلك مبلغا عظيما . ولعلنا لا نغالي أو نبالغ إذا قررنا أن أغلب ماقرأناه من تراث الأئمة اللاحقين عليه ـــ في هذا المجال ـــ كان عالة عليه ونقولا عنه أو إعادة عرض لشروحه وتفسيراته . وأيضا فإن الحياة العريضة التي عاشها هذا الإمام ، والفتن والملاحم التي خاضها فكرا وسلوكا وعلما وعملا ، والمحن التي عاشها أهل السنة في عصره، وصيغت اجتهاداته وفتاواه قد أعطت لها عمقا خاصا لنا نحن أبناء هذا العصر ، كما إننا توخينا أثناء بحثنا أن ننقل عنه ما صرح هو أنه يمثل أهل السنة والجماعة ككل ، لا أنه يمثل فتوى أو إجتهاد خاص به قد يخالفه فيه غيره .

ولقد قسمنا البحث إلى ثلاثة أبواب وخاتمة غير هذا التمهيد أو المقدمة :

ففي الباب الأول: استعرضنا التاريخ العام لمسيرة أهل الحق، وسنة الله الكونية في خروج البشر عن الصراط المستقيم . وقدمنا بعض التعريفات الهامة لهذا البحث ، مثل تعريف: السنة والجماعة وأهل الحديث والسلف والطائفة المنصورة . كما تكلمنا عن نشأة التسمية بأهل السنة والجماعة . ولم نقتصر في هذا الباب على ما كتبه ابن تيمية ، بل جمعنا مادته من مصادر أخرى كما هو موضح في هوامش الباب .

وأما الباب الثاني: فقد أفردناه لنصوص شيخ الإسلام المنقولة من مجموع الفتاوي (طبعة الرياض أو مصورتها) . وقسمنا الباب إلى عدة فصول يجمع كل منها موضوعا واحدا، مثل : منهجهم ـــ أي أهل السنة والجماعة ـــ في التلقي ، وعقائدهم المتفق عليها بينهم ، وموقفهم النظري أو العملي تجاه المخالفين لهم . وحاولنا أن نربط بين فقرات كل فصل بما يوضح الفكرة المعروضة ويخدم تسلسل الأفكار . فكنا أحيانا نبدأ الفصل أو نربط بين بعض الفقرات بكلام قليل يوضح الفكرة أو الأفكار الواردة بالفقرات ولا يوضع لهذا الكلام علامة تنصيص وذلك حتى يستطيع القارىء أن يميز بينه وبين كلام ابن تيمية . وأما الفقرات المنقولة من كلام شيخ الإسلام فقد وضعت بين قوسين (.....) هكذا . وإذا كان هناك شيء محذوف من الكلام وضع ثلاث نقاط علامة الحذف ... ، ثم نذكر في نهاية كل فقرة رقم الجزء والصفحة من مجموع الفتاوي .

وفي الباب الثالث : استعرضنا بشكل عام نتائج البحث وركزنا على المراحل التي يمكن أن تمر بها جماعة أهل السنة والجماعة في الظروف المختلفة . ثم نظرنا إلى الواقع الإسلامي المعاصر نظرة عامة وذلك على ضوء النتائج النظرية للبحث .

وأخيراً ختمنا البحث بمحاولة للإجابة عن السؤال الذي يواجه أهل السنة والجماعة وهو : ما العمل الآن تجاه هذا الواقع المحيط بهم ؟ وماهو المطلوب منهم تجاه هذا الواقع ؟ وكيف ومن أين يبدأون ؟ .

نسأل الله التوفيق والسداد والهداية إلى سبيل الرشاد .

اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنا لما أختُلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراطك المستقيم .

الباب الأول

وهو استعراض تاريخي عام لمسيرة أهل الحق ، وسنة الله الكونية في خروج البشر عن الصراط المستقيم ، مع تعريفات هامة في التمهيد للبحث ، ونبذة عن بداية الفتن ونشأة التسمية بأهل السنة والجماعة .

وهو يحتوي على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تاريخ انحراف الخلق عن الحق .

الفصل الثاني : تعريفات ضرورية .

الفصل الثالث : نشأة التسمية بأهل السنة والجماعة .

الفصل الأول
تاريخ انحراف الخلق عن الحق

الأمانة التي حملها الانسان :

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في هذه الحياة من أجل غاية محددة ، ووظيفة معينة ومهمة مقررة ، وسخر له ما في الأرض جميعا من بحار وأنهار ، ورياح وأمطار، وجبال ووديان ، وحيوان ونبات ، إلى سائر مخلوقات الله عز وجل في أرضه . بل وألهمه الكشف عن بعض قوانين الطبيعة ونواميس الحياة ، كيمايصبح الإنسان أهلا لهذه الغاية الهامة التي من أجلها خلقه الله تعالى ، فالغاية عظيمة ، والمهمة شاقة ، والأمانة ثقيلة ، حتى لقد أشفقت منها السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها . قال تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴾[1].

إن هذه الغاية العظيمة والمهمة الشاقة ، والأمانة الثقيلة التي حملها الإنسان وانفرد بها دون سائر المخلوقات والكائنات هي خلافة الله في أرضه . إن رب الأرباب وملك الملوك وجبار السموات والأرض قد خلق الإنسان من أجل أن يستخلفه في أرضه ، ويجعله مسئولا أمامه عما جعله مستخلفا فيه .

يقول الله عز وجل مخبرا الملائكة عن المهمة التي من أجلها خلق الإنسان ، ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾[2]

---

(١) الأحزاب آية ٧٢ . يقول ابن عباس (الأمانة هي الطاعة) ويقول ابن كثير (إنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عوقب) . أ هـ . راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٧٧ ط الشعب .

(٢) البقرة آية ٣٠

يقول الإمام الطبري (إني جاعل في الأرض خليفة مني ، يخلفني في الحكم بين خلقي، وإن ذلك الخليفة هو آدم ، ومن قام مقامه في طاعة الله ، والحكم بالعدل بين خلقه)[1] أ هـ .

ويقول ابن كثير (فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم ، قاله القرطبي)[2] أ هـ

ثم يقول (وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ويقطع تنازعهم ، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ، ويقيم الحدود ، ويزجر عن تعاطي الفواحش ، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا يمكن إقامتها إلا بالإمام ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)[3] أ هـ.

خلافة الانسان في الأرض وشروطها:

ولما كانت خلافة الإنسان في الأرض مشروطة بشرطها ، وهو الالتزام بطاعة الرب والملك وصاحب الأمر والنهي ، من تحقيق أوامره طمعا في ثوابه واجتناب نواهيه خوفا من عقابه ، كل ذلك في إطار من التوقير والمحبة والتعظيم ، كانت قضية خلافة الإنسان في الأرض هي نفسها قضية عبادة الإنسان لله القاهر فوق عباده. يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلى ليعبدون ﴾[4].

يقول ابن تيمية (فيُعبد في كل زمان ، بما أمر به في ذلك الزمان)[5] أ هـ.

ويقول ابن كثير : (ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب)[6] أ هـ.

ميثاق الفطرة:

ولما علم الله عز وجل عظم الأمانة وثقل التكليف الذي حمله الإنسان ، ذلك المخلوق

---

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص٧٠ دار المعرفة .
(٢) تفسير ابن كثير ج١ ص٦٩ دار المعرفة .
(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٧٢ دار المعرفة .
(٤) الذاريات آية ٥٦ .
(٥) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٤١ .
(٦) مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٨٧ .

الضعيف المفتقر بذاته إلى ربه وخالقه ـــ ولما كان الله الحكيم الخبير لا يكلف نفسا إلا وسعها ، فقد خلق الله الإنسان مفطورا بطبعه على معرفة ربه ، وتوحيده ، والتزام طاعته وعبادته وحده لا شريك له ، فلا يتلقى إلا منه ولا يتوجه إلا إليه .

قال تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الارض من شيء أكنت مفتديا به ؟ قال : فيقول : نعم ، فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي »[2].

من رحمة الله أن لايعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة الرسالية :

وبالرغم من قيام الحجة وانقطاع العذر ، شاء الله العليم الخبير بحكمته البالغة ـــ رحمة منه وفضلا ـــ أن لا يؤاخذ بني آدم بمقتضى ميثاق الفطرة وحده . وأن لا يعذب أحدا إلا بعد أن يقيم عليه الحجة الرسالية . قال تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾[3]. فبعث الله رسله تترى ، تذكر الناس بميثاقهم الأول مع ربهم وخالقهم ، وبالأمانة الكبرى التي حملهم إياها في أرضه ، وتأمرهم أن يلتزموا بمقتضى استخلاف الله لهم في هذه الحياة ، وتقطع عليهم آخر الأعذار التي يمكن أن يجادل بها بنو آدم ربهم ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾[4].

---

(١) الأعراف آية ١٧٢-١٧٤ .

(٢) أخرجاه في الصحيحين ـــ جاء عن ابن عباس فيما رواه ابن جرير أن الله أخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . وجاء عن ابي بن كعب فيما رواه عنه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه أن الله عز وجل قال لهم : فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم ، أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا ، اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئا . وإني سأرسل إليكم رسلا ليذكروكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي . قالوا ، نشهد أنك ربنا وإلهنا ، ولا رب لنا غيرك . فأقروا له يومئذ بالطاعة .
راجع نصوص هذه الروايات بتمامها في الجزء الأول من معارج القبول ص ٣٤ وبعدها .

(٣) الإسراء آية ١٥

(٤) النساء آية ١٦٥

يقول الإمام ابن القيم (فليس في العقول أبين ولا أجلى من معرفتها بكمال خالق هذا العالم وتنزيهه من العيوب والنقائص ، وجاءت الرسل بالتذكرة بهذه المعرفة وتفصيلها . وكذلك في الفطرة الإقرار بسعادة النفوس البشرية وشقاوتها وجزاؤها بكسبها في غير هذه الدار ، وأما تفصيل ذلك الجزاء والسعادة والشقاوة فلا تعلم إلا بالرسل . فالرسل تذكر بما في الفطر وتفصله وتبينه ، ولهذا كان العقل الصريح موافقا للنقل الصحيح ، والشرعة مطابقة للفطرة يتصادقان ولا يتعارضان) أ هـ[1].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية (وأيضا فالاستغفار والتوبة مما فعله وتركه في حال الجهل قبل أن يعلم أن هذا قبيح من السيئات ، وقبل أن يرسل إليه رسول ، وقبل أن تقوم عليه الحجة ، فإنه سبحانه قال ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ... وما فعلوه قبل مجيء الرسل كان سيئا وقبيحا وشرا ، ولكن لا تقوم عليهم الحجة إلا بالرسول هذا قول الجمهور ...

والجمهور من السلف والخلف على أن ما كانوا فيه قبل مجيء الرسول من الشرك والجاهلية شيئا قبيحا ، وكان شرا . لكن لا يستحقون العذاب إلا بعد مجيء الرسول)[2] أ هـ.

وهكذا لم يترك الله عز وجل بني آدم في هذه الحياة لأنفسهم ، بل أحاطهم دائما بمنهاج النبوة ونورها من لدن آدم عليه السلام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وجعل الرسالات مع رصيد العقل والفطرة وتفاعلها مع آيات الله المبثوثة في الكون تشكل المنارات التي تهدي بنى آدم في رحلة سعيهم إلى ربهم ، والتي تردهم — من شرد منهم — إلى صراط الله المستقيم .

ولكن الناس اختلفوا على رسلهم ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾[3]، وآمن من آمن — وهم قليل — فكانت تلك هي سنة الله في خلقه ﴿ وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾[4]. ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾[5].

---

(١) شفاء العليل ص ٣٠١-٣٠٢

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١١ ص ٦٧٥ وبعدها .

(٣) الإسراء آية ٨٩ .

(٤) الانعام آية ١١٦

(٥) الاحزاب آية ٦٢ .

قال تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[1].

يقول ابن كثير : (عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين...

وعن قتادة قال : كانوا على هدى جميعا فاختلفوا ، فبعث الله النبيين ، فكان أول من بعث نوحا . وهكذا قال مجاهد كما قال ابن عباس أولا .. لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحا عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض .

ولهذا قال الله تعالى ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم ﴾ أي بعد ما قامت عليهم الحجج وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض ... ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴾ أي عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف ، أقاموا على الإخلاص لله عز وجل وحده وعبادته لا شريك له ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف واعتزلوا الاختلاف ، وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة ، شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون أن رسلهم قد بلغوهم وأنهم قد كذبوا رسلهم)[2]. أ هـ .

فساد الفطرة :

ولما فسدت فطرة أكثر البشر ، ولما ﴿ كان الانسان أكثر شيء جدلا ﴾[3]، زين الشيطان للناس سوء عملهم ، ولبس عليهم الحق بالباطل : وألهمهم المقدمات الفاسدة حتى يجادلوا بها عن باطلهم وينافحوا عنه ، ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا

---

(١) البقرة آية ٥٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ج١ ص٢٥٠ .

(٣) الكهف آية ٥٤ .

به الحق ﴾[1] فما أعجب ابن آدم حين تفسد فطرته ، وتظلم بصيرته ، ويضل عقله ، فيرى الباطل حقا ، ويرى الحق باطلا ، أو يزيغ عنه أصلا فلا يراه ، ولكن صدق الحكيم الخبير ﴿ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾[2]. ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾[3].

واختلف أهل الكفر فيما بينهم ، وانقسموا الى فرق وأحزاب ، وشيع وجماعات وتفاوتوا في دركات الكفر والضلال والتيه والبعد عن الصراط المستقيم ، فمنهم من أنكر الخالق ، ومنهم من أنكر الوحدانية ومنهم من أنكر النبوات ومنهم من أنكر البعث والمعاد ، الى آخر هذه المقالات الفاسدة التي يلقي بها الشيطان الى أوليائه[4].

يقول ابن حزم : (رؤوس الفرق المخالفة لدين الإسلام ست ، ثم تفرقت كل فرقة من هذه الفرق الست على فرق ، وسأذكر جماهيرها إن شاء الله عز وجل ، فالفرق الست التي ذكرناها على مراتبها في البعد عنا :

(أولها) مبطلوا الحقائق ، وهم الذين يسميهم المتكلمون السوفسطائية .

(ثم) القائلون بإثبات الحقائق ، إلا أنهم قالوا : إن العالم لم يزل وإنه لا مُحدِث له ولا مُدبِر .

(ثم) القائلون بإثبات الحقائق وإن العالم لم يزل وإن له مدبرا لم يزل .

(ثم) القائلون بإثبات الحقائق ، فبعضهم قال : إن العالم لم يزل ، وبعضهم قال : هو محدث : واتفقوا على أن له مدبرين لم يزالوا ، وانهم أكثر من واحد ، واختلفوا في عددهم .

(ثم) القائلون بإثبات الحقائق ، وإن العالم محدث ، وإن له خالقا واحدا لم يزل وأبطلوا النبوات كلها .

(ثم) القائلون بإثبات الحقائق ، وإن العالم محدث ، وإن له خالقا واحدا لم يزل

---

(١) الكهف آية ٤ .

(٢) إبراهيم آية ٤ .

(٣) الكهف آية ١٧ .

(٤) يقول ابن القيم في قوله تعالى في سورة القيامة ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ يقول : (ومن أسرارها أن اثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل ، وهذا أحد القولين لأصحابنا وغيرهم وهو الصواب ... فإن ملكه الحق يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه ، وكذلك يستلزم إرسال رسله وإنزال كتبه وبعث المعاد ليوم يجزي فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، أ هـ راجع التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص ١٦١-١٦٢ .

وأثبتوا النبوات ، إلا أنهم خالفوا في بعضها ، فأقروا ببعض الأنبياء عليهم السلام وأنكروا بعضهم ...﴾[1]هـ .

هذا عن أهل الملل المخالفة لدين الإسلام . وأما عن أهل الملة الإسلامية فإن الله عز وجل لما بعث في كل أمة رسولا ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[2] فإن كل رسول كان يدعو قومه إلى دين الله الذي هو الإسلام .

أي الإستسلام له سبحانه وتعالى وحده ـــ ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[3]، والذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾[4].

يقول ابن تيمية : (كان الأنبياء جميعا مبعوثين بدين الإسلام ، فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره لا من الأولين ولا من الآخرين)[5] أ هـ . ويقول : (وأما الكتب السماوية المتواترة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقاطعة بأن الله لا يقبل من أحد دينا سوى الحنيفية ، وهي الإسلام العام : عبادة الله وحده لا شريك له والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر)[6] أ هـ .

ويقول رحمه الله : (وقوله تعالى ﴿ أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ أمر مع القسط بالتوحيد ، الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وهذا أصل الدين ، وضده الذنب الذي لا يغفر . قال الله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ . وهو الدين الذي أمر الله به جميع الرسل وأرسلهم به إلى جميع الأمم .. وهو الإسلام العام الذي اتفق عليه جميع النبيين ... وهذا التوحيد الذي هو أصل الدين هو أعظم العدل ، وضده وهو الشرك أعظم الظلم)[7] أ هـ .

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ١ ص ٣ .
(٢) النحل آية ٣٦ .
(٣) آل عمران آية ١٩ .
(٤) آل عمران آية ٨٥ .
(٥) العبودية ص ٣٤ .
(٦) الفتاوى الكبرى ج ١ ص ٣٣٥ .
(٧) الفتاوى الكبرى ج ١ ص ٣٤٨ .

ويقول (ودين الله الذي هو الإسلام مبني على أصلين : على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيء ، وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان رسوله ﷺ ، وهذان هما حقيقة قولنا : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله)[1] .

ويقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾[2] .

يقول : (هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد ... وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي ... والدين الذي لا يقبل الله غيره : التوحيد والإخلاص لله تعالى الذي جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام)[3] أ هـ .

وكان أتباع كل رسول من المؤمنين به يصاحبون رسولهم في حياته ، فيعايشونه ويتعلمون منه ويتلقون عنه ويقتدون به ، ويحفظون عنه كتاب ربه إليه وآثاره وسنته ، ويسألونه عما يشكل عليهم من أمور ، ويستفتونه مباشرة في كل ما يمس أمور معاشهم ومعادهم .

حتى إذا ما مات الرسول ، وطال الأمد على قومه من بعده ، تبددت الأصحاب ، وتجددت الأجيال ، فضعفت الهمم ، وغلبت الشهوات ، وأفرخت الشبهات ، وقست القلوب ، وقل الاقتداء ، وغابت السنن ، وغلبت البدع ، واختلط الحق بالباطل ، وتداخلت الكتب الربانية والآثار النبوية بالفلسفات الوثنية ؛ والأوليات العقلية بالمقدمات المنطقية . وبعد أن كان الناس أمة واحدة على الحق اختلفوا وتفرقوا . ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾[4]. ﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾[5]. ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾[6]. ﴿ وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيدا ﴾[7].

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ١٦٢ .
(٢) المائدة آية ٤٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٦٦ .
(٤) يونس آية ١٩ .
(٥) الجاثية آية ١٧ .
(٦) المؤمنون آية ٥٣ .
(٧) البقرة آية ١٧٦ .